المحاضرة الخامسة:

الأبطال والتاريخ (صنع التاريخ: شخصيات أم حضارات)

من الذي يصنع أحداث التاريخ، وتؤثر في مساره: الأفراد أو الجماعات؟ الحكام أم الشعوب؟ هل الأحداث التي تصل إلى درجة من التأثير و الفاعلية من خلق ساسة وقواد بلغوا مرتبة البطولة أم أن هذه الأحداث حصيلة حضارة أسهم فيها شعب بجميع أوجه نشاطه الاقتصادي والاجتماعي وعلمي وفكري وفني وأدبي، فضلا عن أنظمته من دين و لغة و عادات؟ لمن يؤرخ المؤرخ: لشخصيات يراها صنعت التاريخ وأثرت فيه أم يؤرخ لحضارات؟ ما هو محور التاريخ؟ الأفراد أم الشخصيات؟.

1- التاريخ من صنع شخصيات:

إن الفكرة السائدة والأكثر شيوعا أن التاريخ مرتبط بالأذهان بشخصيات الساسة والقواد العسكريين. فمثلا، نجد تاريخ اليونان القديمة أمثال بركليس أو سوفكليس أو أرسطو الذين يخطرون في الذهن ولكنه الاسكندر، والدولة العثمانية قد اقترنت في الذهن بسليم الأول أو بسليمان القانوني وغيرهما من السلاطين. وإذا أردنا تسجيل تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين فإنه نعبر عن ثلاثة عمالقة: نابليون وبسمارك ولنين.

وبهذا، فإن سلمنا بان التاريخ من صنع أفراد فهذا يعني هم الذين يؤثرون في الشعوب أو المجتمعات، وأن الأبطال هم الذين يدفعون ويرفعون شعوبهم من الحضيض إلى القمة وصدارة الأحداث، وقد عبر توماس كارليل عن ذلك، بقوله: " إن التاريخ العالمي- تاريخ ما أنجزه الإنسان في العالم- إنما هو في صميمه تاريخ العظماء وما أنجزوه، إن كل ما تم انجازه في العالم إنما هو الحصيلة

المادية الخارجية والتحقيق العملي والتجسد الحي لأفكار عاشت في عقول عظماء عاشوا في هذا العالم، إنهم روح التاريخ العالمي كله".

يعتبر كارليل هذا البطل على أنه: فريد، ورسول من قبل عالم الغيب للإنسانية البشري، إن ما ينطق به من كلمات ليست لأحد غيره، نابعة من جوهر الحقائق وأقواله نوع من الإلهام. ويحلل كارليل عناصر العظمة فيرجعها إلى أسباب ثلاثة:

1- الإيمان بأن البطل قد اختاره الله
2- الإيمان بالجبرية التي يعبر عنها البطل برسالته.

3- أن يتحلى البطل بالشجاعة.

وبالتالي، ينتقد القول إن البطل ابن عصره أو وليد مجتمعه بقوله: " إنهم يقولون عن البطل انه ابن عصره، وينسبون كل شيء إلى عصره، ولكن قد عرفت عصور تصرخ عاليا تنادي مطالبة بالعظماء، ولكنها نفتقدهم. يعتبر كارليل ممثلا لنظرية " البطولة صانعة التاريخ"، فإنه قد استدرك على ذلك استدراكين:

الأول، إنه لم يقصر البطولة على السياسة والحرب بل علة أفراد يعدون ممثلين لمختلف جوانب الحضارة.

الثاني، إنه لم يمجد السياسة والقواد تمجيدا مطلقا، ولكنه كان على وعي بالفرق بين البطولة الحقة والبطولة الزائفة.

إن آراء كارليل لم تجد استجابة تذكر في المجتمعات الغربية، وذلك تعود إلى عدة أسباب، نذكر منها:

1- لم يعالج الموضوع معالجة علمية أو مستندة إلى التحليل أو إلى منطق العقل، بل كان مجرد رد فعل انفعالي من يبخسون قيمة الأبطال.
2- لقد حمل على نظرية التفويض الإلهي للملوك ثم قدم الأبطال في صورة مرسلين.
3- إن أفكاره جاءت مناهضة لروح العصر لاسيما في أوروبا، إذ تقف المجتمعات الديمقراطية من
4- نظرية البطولة موقف فيه شيء من الحذر والتشكك.

2- التاريخ من صنع حضارات:

لكي يؤرخ المؤرخون لحضارات بدلا من أفراد لابد أن يصبح في تقديرهم غير تابع للسياسة، فهذه الأخيرة ليست المظهر الوحيد التي تعبر عن الحضارة ، بل تتجلى أيضا في مظاهر أخرى.قد يكون الدين أو الفكر أو العلة أو التكنولوجيا حينئذ يجد المؤرخون أنفسهم يؤرخون لهذه المظاهر ممثلة في رجالها.

أن المؤرخون يسلمون بان الجماعة –لا الفرد- هي التي تسير التاريخ، ويعتبر التأريخ الإسلامي أو تاريخ لحضارات باعتباره " فيه أخبار الأنبياء صلوات الله عليهم وسننهم مع العلماء والحكماء وكلامهم مع الزهاد والنساك ومواعظهم" .

تحكمت في الفكر الإسلامي عدة عوامل جعلت المؤرخين يؤرخون للحضارة لا الحكام، وأهم هذه العوامل:

1- كان القرآن الكريم الأثر الكبير في تصور المسلمين للتاريخ
2- إن مدار القصص في القرآن حول أنبياء لا ملوك أو حكام، إنه حين يذكر فرعون فمن حيث صلته بموسى.
3- أن الهدف من قصص القرآن هو الموعظة والاعتبار فهو هدف ديني أخلاقي.

اجتمع التاريخ إلى الحديث إذن ليحقق هدفا مشتركا هو تسجيل نظم الحياة الدينية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. لذا، لم يتخذ التاريخ في الإسلام السياسة محورا وإنما اتخذ الدين، ولم يسجل أعمال الملوك بقدر ما سجل فكر العلماء والفقهاء والمحدثين والصوفية والشعراء. ولم يتصور الإسلام أن الأمة مجموعة أصفار لا قيمة لها إلا بالواحد ، وهو الحاكم كما هو الحال في التصور القائم على أن التاريخ من صنع أفراد، وإنما تصوروا الحضارة الإسلامية بفكر علمائها لا بسيرة خلفائها.

إن التاريخ من صنع حضارات، بل التاريخ هو الصورة الفكرية للحضارة ينشرها الناس مقدما لهم الحساب عن نشاط الفكر الإنساني في ماضيه عن تراث للآباء والأجداد معبرا عنهم.